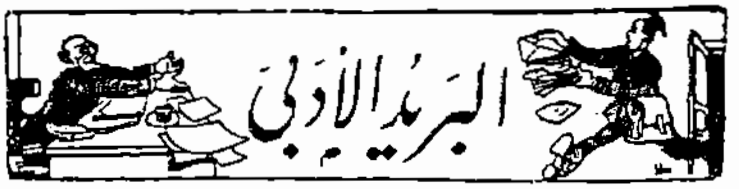

بين (أومن بالإنسان) و (هذى هى الأغلال):

لقد أخذتني فرحة هزتني حين تصفحت بسرعة كتاب (هذى هى الأغلال) للأستاذ عبد الله القصيمي النجدي، فرأيته يتناول بالشرح والتأييد القضيتين اللتين يدور حولهما فكرى ويكاد يقف على الدعوة إليهما قلمى منذ ست سنوات أو تزيد، وهما قضية « الإيمان بالإنسانية » وقضية الاعتقاد أن « الحياة صادقة » وذوو الفلسفات الذين يزرون عليها وينادون بالحرمان من ينابيعها كاذبون، لأنى أعتقد أن اعتناق هاتين الفكرتين أمر جدير أن يحدث انقلاباً عظيما فى نظرة الناس إلى أنفسهم وإلى الحياة وإلى واهب الحياة، إذ هما الشيء الواحد الجديد الذى يمكن تقديمه للبشرية جميعها الآن ويمكن اللقاء بينها فى مجاله، ويمكن به إمدادها بكثير من عوامل التأميل والإسعاد والتفاؤل.

فما إن رأيت أن الفصل الأول من (هذى هى الأغلال) عنوانه (لقد كفروا بالإنسان — الإيمان به أول) حتى قلت الحمد لله ثم الحمد لله! إذ أرى عالماً من نجد — وما أدراك ما علماء نجد فى محافظتهم! — يعتنق الفكرة ويدعو لها بحماس ويصدر بها كتابه.

وما إن رأيت كذلك أغلب فصول الكتاب يستعرض أقوالا معدودة فى سجل الحكم والفضائل عند كثير من المسلمين وتنحى عليها بالنقض ثم تجعلها فى سجل الرذائل المدمرة للحياة والدين، حتى ثنيت الشكر لله على أن ما سبق أن قلته فى مقالات (الحياة صادقة) فى هذه المجلة فى أوائل سنة ١٩٤٢ وما بعدها قد وجد صدى مدوياً. ولكن ما لبثت هزة الفرح والابتهاج أن انقلبت إلى أسىً ووجوم واشمئزاز! إذ رأيت الكتاب يخلو من أدنى إشارة إلى تسجيل سبق فى هذه الدعوة، وإذ رأيت صاحبه مع ذلك يحدث ضجة مفتعلة حوله، ويصدر غلافه بهذه الجملة « سيقول مؤرخو الفكر: إنه بهذا الكتاب قد بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل ... » وإنه « ثورة فى فهم الدين والعقل والحياة ... » كأن مؤرخى الفكر عميان لايتلمسون مصادر الآراء!

وإنى أعجب كيف يجرؤ كاتب أو مفكر يحترم رأى الناس ويستحيي من نفسه أن يسبق التاريخ ويصدر حكمه على عمله بهذه الدرجة من الافتنان والزعم!

إن المفكر الواثق من أنه أتى بجديد حقاً يضع آثاره بين يدى التاريخ فى صمت ويدع له أن يحكم ولا يتعجل الحكم حتى تعلنه الأيام سواء فى حياته أم بعد مماته .. والمفكر الأمين الثقة الغيور على الحق وحرية الفكر يترفع عن أن يغمط حق غيره وعن أن يغطى جهود من سبقوه بالدعاوة الجريئة لنفسه، لأن هذا إن جاز مجال الإعلان عن التاجر والمهن فلن يجوز فى رحاب الفكر والخلق

ولكن ما للمؤلف وللحديث عن الأخلاق، وهو كما روى عنه الأستاذ سيد قطب فى مجلة السوادى يرى « أنه يجب أن ننفى العنصر الأخلاقى من حياتنا، فالحياة لا تعرف العناصر الخلقية ولا قيمة لها فى الرقى والاستعلاء ... ».

ومما زاد أسفى أن أرى المؤلف يتجاهل حين سأله الأستاذ قطب أن يكون قد علم بسبق إلى الفكرة. فعلى فرض أنه لم يطلع على (أومن بالإنسان) بعد ظهوره مجموعاً فى سنة ١٩٤٥ فهل يكون من المقبول أو المعقول أنه لم يقرأ حتى بعض مقالات (أومن بالإنسان) التى تقارب العشرين حول تلك القضية أثناء بسطها فى « الرسالة » وأحياناً فى الثقافة فى مدى خمس سنين تقريباً، ولا أزال أبسطها للآن ويتناولها بعض الكتاب بالمناقشة؟ أم هو يزعم أنه لم يقرأ « الرسالة » أيضاً طول هذه المدة!!

ولئن كان سرورى بانتشار الفكرة برغم انتحال ناشرها لها قد قعد بى ما يزيد على شهرين بعد اطلاعى مصادفة على كتاب (هذى هى الأغلال) لدى الأستاذ الجليل محب الدين الخطيب، دون أن أنبه القراء، يضاف إلى ذلك أننى كنت على ثقة من أن النقد اليقظ سيرد الأمر إلى صاحبه ... لئن كان ذلك هو ما قعد بى عن التنبيه فإنى حين اطلعت على مقال الأستاذ سيد قطب فى مجلة (السوادى) فى الأسبوع الماضى ورأيته يكشف عن خبايا كبيرة فى آراء القصيمى الشخصية وسلوكه السياسى نحو محطمى أمجاد الإسلام والأديان ومهدرى كرامة الإنسان ... شعرت أن الواجب يقتضينى أن أنبه القراء إليه.

ولعلى أجد من الوقت مايسمح بتتبع الالتواء الذى خرج به المؤلف عن جادة الفكرة الأصيلة التى تبناها فى حياة أبيها ...

عبد المنعم خلاف

إلى الأستاذ مصطفى لطفي المنفلوطي :

قرأت شاكراً ما كتبت وكتبت اليد ذات السوار وكتب الأستاذ فؤاد السيد خليل ، ورضيت ووافقت في الجملة ، وأنا رجل لا أكره النقد ولا أطيل النزاع في أدبي وأسلوبي ، لأني أعرف من نقائصهما أضعاف ما يتنبه له الناقدون ، وما ادعيت لهما الكمال قط ، ولكني أنازع فيما أجد فيه خروجاً على الجادة ومضرة للناس كقولك : « ولعلي أصدقك ، وقد كنت في ماضي حياتي معلماً في مدارس البنات ، فهذه المخاوف التي استوت على ذهنك كنا نتصورها ، أو قريباً منها ، حتى إذا وجدنا أنفسنا في هذا الوسط ، أحسسنا أن هؤلاء البنات بناتنا ، والمعلمات أخواتنا ، وزال هذا الخوف الأسود من مشاعرنا ، وصارت الحياة عادية ، وهذا شأن سائر المعلمين في مدارس البنات

« فرفقاً بالناس وحنانيك ، وإنصافاً ، يا حضرة القاضي ، فالأمر إن شاء الله على ما تحب بفضل القدوة الصالحة ، والتهذيب الصحيح ، وإلا فلتغلق مدارس البنات ، والسلام »

يا أستاذ ، إن القضية أهم من أن نضيع الحق فيها في غمرة المجاملات ، وإن لها من الأثر في حياتنا ما يوجب علينا إيجاباً الكلام فيها بصراحة ووضوح ، كما يتكلم الطبيب في المرض ابتغاء علاجه ، وعلى ذلك أقول لك إننا ، وما قلت (نا) على سبيل تعظيم نفسي ، بل أردت الجمع الحقيقي ، وأنا أتكلم عن نفسي وعن كل من قال أنا عربي ، وكل من شهد أنه لا إله إلا الله ، وأسوق قضايا لا أظن أن في الدنيا عربياً أو مسلماً يعارض فيها .

أقول لك : إننا لا نجد مدارس البنات في الشام على ما نحب ، بل على ما نكره أشد الكراهية ، وعلى ما نألم منه ونشكو ونستغيث ، وإذا فتشنا عن القدوة الصالحة في مصر وجدنا مدارس مصر أدهى وأمر ، ووجدنا أن مدارس البنات في الشام إذا قيست بمدارس مصر كانت مساجد ، وأشهد أنه ما جاءنا هذا الذي نشكو منه إلا من مدارسكم ومجلاتكم وأقلامكم . ولا تحسب أني أتعصب للشام ، ولا تأخذك عصبية لمصر ، فأنا أيضاً مصري الأصل طنطاوي ، ولقد أحببت مصر وعشت فيها زمناً ، وأنا قادم إليها الآن لأعيش فيها زمناً آخر ، ومن محبتي لها أذكر عيوبها ...

ونحن ، يا أستاذ ، نريد العلم للرجال وللنساء ، ومن ذا الذي لا يريد العلم ؟ ولكنا نريد الدين أيضاً ورضا الله ، ونريد الأخلاق والعفاف والشرف ، ولا نستطيع أن نصدق ولو أكدت القول لنا ، أن في الدنيا شاباً متدفق الشباب رجلا ناضج الرجولة ، يعيش بين بنات ناضجات الأنوثة ، كاشفات الوجوه والأيدي والسوق يقفزن أمامه ويلعبن ، ويمرحن ويضحكن ، ويقرأن عليه في الدروس أشعار الحب والغزل ، ويقرأن وحدهن هذه المجلات المصورة الملونة ، ويرين هذه الأفلام الدنسة ، لا يصلين وكيف يصلين مكشوفات العورة ، ولا يعرفن الحلال ولا الحرام ، ثم يحس أن هؤلاء البنات بناته ، وأن المعلمات أخواته ، وتصير الحياة عادية ، ويكون هذا شأن سائر المعلمين في مدارس البنات ، هكذا على التعميم بلا استثناء !

إذا كانت هذه الحياة عادية ، ليس فيها شيء غريب ولا شاذ ، كانت قوانين الطبيعة التي وضعها الله ، وكانت أحكام العقل ، وكانت مقررات الشرع هي الشاذة الغريبة ، فانظر رحمك الله ما تقول !

يا أستاذ ، أنت رجل مسلم ، فهل تعتقد أن الله حرم شيئاً عبثاً ، ومنعه لهو أو تسلية ، تعالى الله عن ذلك ، أم لحكمة بالغة ، ومنفعة شاملة ؟ وهب أن الحكمة من أمر أو نهي خفيت علينا ، فهل يحلك مسلم تعدّي حدود الله ؟ وإذا هو استحل ما حرم الله ، فهل يبقى مسلماً ؟

فقل لي : هل يجوز في دين الله أن تعيش وبعيش الشباب في هذا الوسط ، ولو كان المستحيل وصارت الحياة عادية ، ورأيت البنات كبناتك ، والمعلمات كأخواتك ؟ أريد الحكم الفقهي الشرعي لا أريد الآراء والخطابيات ، فإن مصر دينها الرسمي الإسلام !

وهل يجوز وهذا هو حكم الله ، والغرائز بعدُ موجودة ، والميول قائمة ، والنفس أمارة بالسوء ، والشيطان عامل للشر كادح . أن تقيم وزارتكم مهرجاناً رياضياً في أول الصيف الماضي ، نرى صورة له في مجلة مصورة ، فنرى من التكشف (تكشف البنات اللائي هن كبناتك) . ومن الأوضاع الرخيصة الفظيعة ما يذكر بأخبث ما يشاهد في السينما الخليعة ، وأن تفتح مسبحاً للبنات ونبصر صورهن منشورة وهن يسبحن فيه أمام الرجال ؟